

الفصل الحادى عشر

حروب الشام

إن أكبر ما يمتاز به الزعامة هو قدرتها على استرداد قوتها التقضى بها بغيتها .
وأ أكبر ما يميز القائد الماهر عن الجندى الموفق ، هو أن الأول إذا هزم يحمل
الصدمة ولم تذهب ريجه . لذلك ترى الأمة الإنجليزيه كثيراً ما تضطرب أمورها
فى المراحل الأولى من حروبها ، وكثيراً ما تخسر جميع مواقعها إلا الموقعة الحاسمة
الأخيرة . وليس أدل على أن محمداً علياً وإبراهيم كانا يمتازان بأعظم صفات
الزعامة ، من أنهما أخذتا يعملان ليجحوا أثر الهزيمة التى منيا بها فى نوارين ، كما
أن انصرافهما إلى بناء أسطول جديد دليل على منتهى الحكمة وبعد النظر .

وقد كتب سماركو فى كتابه القيم « الأسطول المصرى فى عهد محمد على »
وصفاً رائعاً لما كانا يبديانه من الهمة والشجاعة فى إنشاء الأسطول الجديد .
وأبلغت القنصلية الروسية فى الإسكندرية بطرسبرج فى ٢٨ مايو سنة ١٨٢٨
قبل أن يعود إبراهيم من بلاد المورة أن عدد وحدات الأسطول المصرى قد بلغ
اثنتين وخمسين سفينة معظمها من الأباريق (ذات الشراع المربع) والبوارج
الصفيرة من نوع الجيولت والكورقت ^(١) .

وبعد شهرين من هذا التاريخ كتب هذا القنصل نفسه يقول إن محمداً علياً
اعتزم إنشاء أسطول ، وأعد العدة لاستيراد ما يلزمه من الخشب من كرمانيا

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٢٢٣ .

والنحاس من توكلات في آسيا الصغرى ، وإنه شرع في إنشاء دور لصناعة السفن في مصر . وقد وضع للعمل نظاما محكما حتى أنه أدخل في مصر نباتات جديدة ، لكيلا يضطر إلى استيراد المواد اللازمة لصنع الحبال والأشعة^(١) ، وعين في شهر فبراير سنة ١٨٢٩ رجل فرنسي يدعى سريزي Cerizy ليشراف على إنشاء الأسطول الجديد^(٢) .

ولم يكن محمد علي ليجهل أن الحرب لا بد ناشبة بينه وبين عبد الله والى عكا حصن الشام الحصين في يوم من الأيام . ولذلك أخذ يعد للأمر أقرانها لأن الدولة العثمانية بله البحر الأبيض الشرق لا تتسع لمحمد علي وعبد الله ؛ فكلاهما طموح يبغى مجالا واسعا لمطامعه ؛ وتجاورها لا بد أن يؤدي إلى قيام النزاع بينهما ، لأن كلا منهما حجر عثرة في سبيل الآخر ، ولا بد أن يكون السيف هو الفاصل بينهما مهما تراخى الأمد . وجاءت الفرصة المرتقبة حينما ازدهى عبد الله على والى مصر . ويقال إنه حاول مزة أن يدس السم لمحمد علي وإبراهيم ، وإنه جعل من البلاد التي كان يحكمها معششا للوأمراء على مصر^(٣) . على أن الباشا وولده لم يأبها لهذه الدسائس ، لأن الأخطار التي كانا يتعرضان لها نتيجة لازمة لمنزلتهما السامية . فلما أن تحفى عبد الله بالمصريين الفارين من الجندية ، شعرا أن الوقت قد حان لامتناسق الحسام .

وأدرك السلطان أن الشر لا بد أن يستطير بين تابعيه القويين . ومع أن محمودا لم يكن من الحكام الأقوياء ، فقد كان يعلم من أحوال دولته ما يكفي

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٣٣٣ .

(٣) تاريخ الحرب بين محمد علي والباب العالي تأليف كدلقين وبرو طبعة أرثر برتران

بيارس ١٨٣٧ ص ٤١ .

لإدراكه أن والى مصر أقوى الفريقين ، ولذلك اعتزم أن يضعف من شوكة محمد على بالتودد إلى إبراهيم لعله يستطيع أن يفرق بين الوالد الشجاع وابنه المدبر ، ولكن رجاءه خاب . وكانت الخطة التي دبرها ليصل بها إلى غرضه خطة ساذجة ، وهي أنه منح إبراهيم لقب « أمير مكة » اعترافاً بفضله في الاستيلاء على الحرمين ، وهو اعتراف جاء بعد فوات الأوان . وكان هذا اللقب أعلى ألقاب الشرف التي يستطيع الباب العالي أن يمنحها إنسان ، وكان صاحبه يقدم على جميع وزراء الدولة العثمانية ، فأصبحت له بذلك الرياسة الدينية على محمد على . لكن إبراهيم أخلف مظنة السلطان ، فأخفق مسعاه في إذلال باشا مصر وبذر بذور الشقاق بينه وبين ولده ؛ لأن « أعظم ما يمتاز به إبراهيم » كما يقول مورييه « هو إجلاله لوالده وخضوعه لرأيه على الدوام ، لأنه كان يرى أن أعظم مفاخره أن يكون عون أبيه وساعده الأيمن »^(١) .

وكانت نتيجة هذا السعي للتفرقة بين محمد على وإبراهيم وبالاعتماد على محمود ؛ إذ نقلت إليهما عيونهما أن محموداً يعين عبد الله في عدوانه عليهما . غير أنهما تقبلا هذه المناورات الخفية بصدر رحب ، لأن من عادة الشرقيين أن ينظروا إلى الدسائس تحاك حولهم وهم هادئون مطمئنون . لكنهما عند ما عرفا أن الآستانة تريد استدلال الباشا ، أجمعا أمرهما على أن يزجرا عبد الله زجراً تصطك له مسامحة محمود . ولسنا في حاجة إلى أن ننبه القارىء أنهما لم ينبذا طاعة الباب العالي أو يعلننا الحرب عليه ، بل كان كل ما اعتزمه أن ينكلا بوالى عكا تنكيلا يعرف منه مولاها مبلغ استيائهما منه ، ويكون عربوناً لما سوف يلقاه منهما فيما بعد . وكان أول ما فعلاه لتنفيذ هذه الخطة الحكيمة أن أرسلوا رسولا إلى عبد الله مزوداً بأمر منهما يقضى :

(١) مورييه في كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ١٤٩ .

- (١) بأن يدفع ١١ مليون قرش يستحقها محمد علي طرفه .
 (٢) وأن يطرد من عنده الفلاحين المصريين .
 (٣) وأن يعد وعداً صادقاً بأن لا يسمح للمصريين بعد الآن بالهجرة إلى ولاية عكا .

فنظر عبد الله في القانون ثم أجاب بقوله :

إني مثلك وزير لمولانا المعظم السلطان محمود حفظه الله ونصره ؛ و ليس من حتى أن أمنع الرعايا المخلصين لمولانا المعظم من الانتقال من مصر إلى الشام ، كما أنه ليس من حقتك أن تمنع هؤلاء الرعايا من الهجرة من الشام إلى مصر . فإذا شئت أن أبادر بتسليم هؤلاء الفلاحين ، فما عليك إلا أن تستصدر لي أمراً بذلك من السلطان نفسه «^(١) .

ولم يعجل محمد علي بغزو الشام لانتشار الطاعون والكولرا في مصر . ولم تمنعه عنايته بمكافحته الوباء من أن يكمل استعداده البرى والبحرى . وكان إبراهيم في الوقت نفسه دائم الحركة والنشاط ، لا يسهو عن شيء مما يحتاجه حتى عصير العنب المخمر اللذيذ . لقد عرفنا من قبل أنه في أثناء زيارته مكة ألقى بما كان معه من الروم في النار ؛ أما الآن وهو يستعد لغزو الشام فقد قال فيه القنصل الروسى إنه « أصبح أكثر مدنية لأنه كان يشرب كثيراً من النبيذ من غير أن يضيف إليه الماء ، وكانت تملو ثغره بتسامة لطيفة على الدوام ، وكان إذا حدث إنساناً وضع يده على كتفه مبالغة في اللطف والرقه . ومجمل القول أن آدابه هي آداب الجندى »^(٢) .

(١) كدلتين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ٤٧ .

(٢) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٣٦٢ .

وكان الجيش والأسطول الجديدان على قدم الاستعداد في خريف سنة ١٨٣١ حينما فرغ إبراهيم باشا من ملء خزائنه بطيبات الحضارة الغربية . ثم أقلع الأسطول في الرابع من نوفمبر وسافر إبراهيم بحراً في السفينة قوله ، وهي فرقاطة بنيت في ميناء أركنجل Archangel ، ميمما نغريافا ، حيث اتفق أن ينضم إليه قائد الفرسان سليم بك ، وعباس باشا وغيرها من الضباط ومعهم ثمانية آلاف من الجال والجنود . وسار مع إبراهيم بطريق البحر سبعة آلاف من المشاة^(١) . وكانت عمارته تتألف من إحدى وعشرين سفينة . على أن تقريراً من تقارير القناصل الروس قد ذكر أنها كانت تتألف من فرقاطة بها عشرة مدافع ومائة مدفع ومن أربع فرقاطات بها ستون مدفعاً ، واثنين بكل منهما أربعة وأربعون مدفعاً ، وأربع عشرة أخرى أصغر منها ، عدا سفن النقل والحراقات^(٢) . ويقول هذا القنصل نفسه إن هذه الحملة سيرت من غير أن يأذن لها السلطان بالسفر^(٣) .

ولربما كانت يافا هي المكان الذي اختير ليجتمع فيه إبراهيم بالحملة التي سافرت إلى الشام برا ؛ لكانه التقى أولاً بالقبائل الوطنية الضاربة حول حيفا . وكان قد نزل عندها إلى البر دون أن يكون معه سوى ستائة من رجاله ، لأن الرياح عاقت سير سفن النقل . وقد وجد بجوار معسكره قوة كبيرة من العرب ، لم يقرر قوادها أينضمون إلى عبد الله أم إلى إبراهيم ، بل كانوا ينتظرون حتى تنجلي لهم حقيقة الموقف فينضمون تحت لواء أقوى القائدين . فلما رأوا العمار المصرية أيقنوا أن إبراهيم أشد بأساً ، فجاؤوا إليه يعرضون عليه خدمتهم في الظاهر ويتبينون حقيقة أمره في الباطن . ولكن إبراهيم أدرك مخبثات صدورهم ، فنظر

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٨ .

(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٦ .

(٣) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٧ .

إليهم نظرة ناقبة لم يستطيعوا معها أن يحجزوه عن ذات أنفسهم ، بل نمت عليهم وجوههم ، فنكسوا أبصارهم ونظروا إلى موطن^١ نعالهم ، فأدرك إبراهيم ما كانت توسوس به نفوسهم من غدر وخيانة . وكان من أقواله المأثورة « إن الرجل الشريف لا يستحي أن يلقاك بوجهه » . وقال في نفسه : « ها قد أخذت بمتنفس هؤلاء الأدياء » ثم أحرق فيهم بنظره وبش في وجوههم وتبسم ابتسامة لطيفة وقال : « لا مانع لدى من أن تكونوا في خدمتي ، ولكنني سأحتفظ بأولادكم رهان عندي حتى أثبت من إخلاصكم » . فنظروا إليه لحظة كأنهم يريدون أن يجيبوه عن قوله هذا ، ولكنهم رأوه لا يزال محققاً في وجوههم فأيقنوا أنه قد أخذ عليهم مذهبهم ، فاستسلموا للقضاء وانضوا هم وجيرتهم تحت لواء إبراهيم^(١) .

وإذا كان علم إبراهيم بالطبيعة البشرية قد أكسبه معونة هذه الطوائف الإسلامية ، فإن تسامحه عاد عليه بصداقة المسيحيين من أهل البلاد المقدسة . من ذلك أنه قدم عليه بعد بضعة أيام من استيلائه على حيفا جماعة من رهبان الكرمل كانوا يريدون أن ينشئوا لهم ديرا على ذلك الجبل القريب من هذا البلد . ويظهر أنهم بعد أن جمعوا بعض مواد البناء اللازمة لهم وعلم عبد الله بما اتووه ، رأى أن موضع الدير يصلح لأن يبني فيه لنفسه قصرا جميلا ؛ فاستولى على مواد البناء ليبنى بها ذلك القصر . وطلب الرهبان إلى إبراهيم أن يأذن لهم بتنفيذ غرضهم الأول ، فأجابهم إلى ما طلبوا وقال لهم : « خذوا كل ما تجدونه من مواد البناء واهدموا القصر إذا كان هدمه يتفق مع أغراضكم » . وقبل أن يبرح الرهبان المكان قال أحدهم إن عبد الله قد قسا عليهم وظلمهم فلم يترك لهم مكانا جافا يخزنون فيه

(١) ياتس في كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٨٢ .

خبزهم وأغذيتهم القابلة للتلف . فأجابهم القائد المسلم : « هيا بنا نبحث عن مكان يصلح لهذا الغرض » . وسرعان ما وجدوا أن ليس في حيفا مكان يقي الأطعمة من المطر إلا المسجد التركي وكنيسة الروم الكاثوليك ، فتفقداهما إبراهيم ثم التفت إلى الكبتن برسك Captain Prissick أحد الضباط الإنجليز الذين كانوا معه ، وإلى راهب ملطي مسن وقال لهما : « إني إذا أخذت كنيسةكم لم تجدوا مكانا تعبدون الله فيه ، وقال الناس عنى إننى همجى . أما رجالى فإنهم يستطيعون أن يؤدوا صلاتهم فى الجامع وفى العراء على السواء ، ولذلك يجب أن يكون المسجد مخزنا لطعامكم . ثم أتبع القول بالفعل ، فأخذ فأساً وفتح به منفذا فى الجدار المواجه للبحر » . ويقول الدكتور ياتس الذى نقلنا عنه هذا الحديث والذى يذكر أنه جمع هذه الحقائق فى حيفا نفسها : « واشترك إبراهيم بنفسه فى نقل أول كيس من الخبز^(١) » .

ولذلك ، لا نعجب من قول هذا المؤرخ نفسه بعد ذلك « وكان لهذين العاملين السياسيين أثر فى فتح الشام لا يقل عن أثر جيشه ، وذلك لأن لرجال الدين فى هذه البلاد نفوذ عظيم . ولم يفهم أن يذيعوا هذين الخبرين بين السوريين المسيحيين . ويجدر بنا أيضا أن نذكر حادثا آخر كبير الأهمية ؛ ذلك أنه لما اقتربت قواه من عكا أرسل إلى عبد الله قبل أن يبدأ الهجوم عليها يحثه على أن يسمح للنساء والأطفال جميعا بأن يغادروا المدينة^(٢) » .

لكن عبد الله لم يعمل بهذا الاقتراح ، وأحرق إبراهيم بالمدينة وهاجمها من البر والبحر . ولم يكن الاستيلاء عليها بالأمر اليسير ، فهى التى وقفت فى وجه

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .

(٢) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٨٣ .

نابليون ، وهي التي كان يدافع عنها عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان ، وإن لم يكن حكيمًا مدبرًا حر الفكر شريف النفس . وحاول إبراهيم في اليوم التاسع من ديسمبر عام ١٨٣١ أن يأخذ المدينة عنوة بالمهجوم عليها من البر والبحر ، ولكنه كان يروم مراما بعيداً . ويقول القنصل الروسي في الإسكندرية في رسالة بعث بها إلى رئيسه في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٣١ إن الهجوم لم يخفق فحسب بل أصبح من المستحيل أن يتنبأ الإنسان بما كان للمهاجرين في ذمة المستقبل (١) .

على أن الصعاب التي قامت بعدئذ لم يكن منشؤها مناعة عكا الطبيعية ، ودفاع عبد الله المجيد عنها فحسب ، بل كانت أيضاً نتيجة الخطة التي سلكها الباب العالي . فبينما كان إبراهيم يدك حصون هذا البلد المنيع بمدافعه ، كان السلطان يصب عليه اللعنات ويسلط عليه سيلا من الفتاوى الدينية ؛ فمن ذلك أنه أصدر خطأ شريفاً يرمى فيه مصر بالمروق ، ويعلن حصار ثغورها ، وأشيع أن الأوامر صدرت إلى الجنود التركية بالزحف على بلاد الشام (٢) ؛ ومنها أنه أصدر في الرابع من مايو سنة ١٨٣٢ فرماناً شاهانيا بتجريد محمد علي وإبراهيم وإباحة دماهما (٣) .

ومر الأسبوع يتلو الأسبوع وعكا مستعصية على الجيش المصري ، لا يستطيع أن ينال منها منالا . وقلقت الأفكار في القاهرة والإسكندرية ، ولكن محمداً علياً بقي مطمئناً مشبع الجنان موقناً بالفوز ؛ وكان يقول على الدوام « ستستقيم الأمور بعد سقوط عكا » . لكن عكا لم تسقط ، وقلقت أفكار الشعب

(١) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٥٣ .

(٢) « حكم محمد علي من وثائق دبلوماسية إيطالية لم تنشر بعد » تأليف أنجيلو سماركو طبع في روما على نفقة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية سنة ١٩٣٢ جزء ٩ ص ٢٠٥ .

(٣) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٧٩ .

فأصدر الباشا في ٨ مارس سنة ١٨٣٢ أوامر مشددة تحرم إذاعة أبناء الحرب في مصر .

وأرسل نائب القنصل الروسي في القاهرة في ٣٠ مارس إلى رئيسه في الإسكندرية ، يبلغه أن أربعة من أهل المدينة قد ضربت أعناقهم جزاء لهم على ثرتهم ، وأن عشرين من زملائهم زجوا في غيابة السجن لينتظروا فيها ما قدر لهم من خير وشر .

وعلقت على أجسام رجلين من هؤلاء الثرثارين أوراق كتب عليهما « هذا جزاء الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » ، وفي اليوم السابع من إبريل سنة ١٨٣٢ عرضت على الجمهور جثتان أخريان كتبت عليهما العبارة الآتية : « هذا هو العقاب الذي يحل بمن يقولون السوء عن الحكومة خفية »^(١) .

ولو طال الانتظار أكثر من ذلك لأعدت أوراق خاصة لمن يذيعون أخبار السوء عن الحكومة وهم نائمون . وفي اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٣٢ حمل إبراهيم على المدينة حملة شديدة ، لكنه عجز عن اقتحامها ؛ فاستقر رأيه على أن يترك حولها خمسة آلاف من رجاله ، ويزحف بمن بقي منهم ، ليواجه جيوش أعدائه المحتشدة . فالتقى بالجيش التركي الذي سيره السلطان لقتاله ، وانقض عليه وحصده حصد المشيم^(٢) ، وعقد له النصر أينما حل ، ولما وصات هذه الانتصارات إلى القاهرة والإسكندرية ، ارتفع شأن إبراهيم ووثق الناس من قدرته وبسالته ، وتبدل قنوطهم أملا واستبشاراً ، وانطلقت الأسن من عقابها ، وأجيز للثرثارين أن يجهروا أو يخافتوا بأبناء الحرب ، ولم يعد منخوبو القلوب

(١) ددول في كتابه السالف الذكر ص ١١٠ .

(٢) سماركو في كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ١٢٦ .

يخشون أن تضيع أزواجهم ما كانوا يرددونه من الأقوال في منامهم .
وبعد أن اتقى إبراهيم الخطر الذي كان يهدد قواته المحاصرة ، عاد إلى عكا
في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة
أشرف عليها بنفسه . وكان إذا حمى وطيس القتال في مكان ، رأيته فيه يخوض
غماره ويصطلي ناره ، وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون
الردى . ويقال إنه قتل بيده نقرأ من الضباط لأنهم أرادوا أن يرددوا إلى آخر
صفوف المهاجمين .

وطالت المعركة واشتد سعيها وعبد الله لم يتضعض ركنه . فلما آذنت
الشمس بالمغيب حمل إبراهيم على المدينة حملته النهائية ؛ وأبدى المهاجمون عند
مغيب الشمس من ضروب الجرأة والحاسة والإقدام مثل ما أبدوه في مطلع
الفجر . ودافع عبد الله دفاع الأبطال ، لكن شجاعته لم تغن عنه شيئاً ، وسقط
هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرخى سدوله على جدران المدينة وأسوارها .

وجاء أعيان المدينة يطلبون الرحمة . ولما كان الشجاع دائماً يعظم الشجعان ،
رأى إبراهيم في فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بمحاربتهم ، فلم يسمع إلا أن
يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ؛ وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأساحتهم .
أما عبد الله نفسه فلم يعد بأكثر من تأمينه على حياته ، ولكنه تلقاه بما هو خابق
بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة ، وبما توجبه مصائبه من الإجلال^(١) .

وسلك عبد الله في ساعة الحنة مسلك البطل المقدم . فقد استولى إبراهيم
على الحصن الحصين الذي امتنع على بونابرت فارتد عنه خائباً ، لكن هذا الحصار
لم يكن فيه سدى سمث Sydney Smith يطوف بأسطوله قرب الشاطئ ،

(١) كدلقين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ١٥٥ .

يحول دون وصول المدافع الثقيلة إلى المدينة ويصد عنها الهجوم من البحر . فلما أعوزها هذا المدد وما يبعضه في قلوب أهلها من الشجاعة والأمل ، حاق بها الخطر ، فهزم عبد الله بعد أن دافع عنها دفاع الليث عن عرينه . ولما طلب إليه إبراهيم أن يأتيه بأموال الدولة عملاً بشروط التسليم أجابه عبد الله :

« لقد كان لي أسوار وجنود وأموال أدافع بها عن عكا . فأما الأسوار فقد دكت ، وأما الرجال فقد كان معي منهم ستة آلاف هلك منهم خمسة آلاف وستائة ، وأما الأموال فلم يبق منها إلا جواهر قليلة »^(١) .

وكان عبد الله قد خر راكعاً أمام إبراهيم عندما عبر عن شعوره بهذه الألفاظ . لكن القائد المظفر لم يسمح له بالركوع وقال له :

« إني لا ألومك على مقاومتك إياي لأننا صنوان ؛ ولكذك قد عدوت طورك إذ أردت أن تقف في وجه محمد علي » . فأجابه عبد الله على الفور :
« إن إرادة الله هي التي أوقعتني في يديك » . وبعد أن تبادل أطراف الحديث هنيهة وهم إبراهيم بالانصراف مساء وقال له :

« أرجو أن تنام الليلة نوماً هادئاً » . فأجابه عبد الله : « سأنام كما كنت أنام من قبل ، لكنني أطلب أن لا تعاملني كما تعامل النساء ، فإن موقفي في الدفاع لم يكن موقفهن . إن الخطأ الذي وقعت فيه هو أنني بالغت في الاعتماد على السلطان ، لكن حظ السلطان من الشرف ليس أكثر من حظ النساء . . . ولو أنني عرفت خلقه لاختطت لنفسي خطة أخرى ؛ ولو فعات لما كنت الآن أسيراً في يديك »^(٢) . وأرسل عبد الله وأفراد أسرته إلى مصر ، ويظهر

(١) ددول في كتابه السالف الذكر ص ١١١ .

(٢) صبرى في كتابه السالف الذكر ص ١٩٧ .

أنهم قد أحسنت معاملتهم وإن بقوا في ذل الإِسار .

ونهب الجند عكا رغم ما قطعه إبراهيم لأعيانها من الوعود ، وما أصدره لجنوده من الأوامر ؛ إذ يلوح أن الجند أفلتوا من يده برهة قصيرة من الزمان ، فانطلقوا في المدينة في أثناء الليل ينهبون ذات اليمين وذات الشمال . لكن النظام لم يلبث أن أعيد في صباح اليوم التالي ؛ وبذل إبراهيم كل ما في وسعه ليكفر عن خروج الجند عليه ، فأذاع في الناس أن كل من فقد متاعه سيرد إليه إذا وجد ، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان في حوزتهم من الأسلاب . واتهز أحد القناصل الأجانب فرصة هذا الاضطراب ، فجعل من نفسه سمساراً وجمع بذلك مالا كثيراً ؛ فقد كان يبتاع أقوم الأشياء بأبخس الأثمان ثم يعود فيبيعها بأغلاها ، ويجني من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، مستظلاً براية الامتيازات^(١) . وقد نقلنا هذه الحقائق عن كدلثين وبرو Cadalvéne and Barrault اللذين استقياها من أماكنها ، ونشرا كتابهما في عام ١٨٣٧

وسار إبراهيم من عكا متجهاً نحو دمشق ، تلك المدينة التي لا يزال يخترقها الزقاق الذي سماه القديس بولس « المستقيم » . والمدينة واقعة في وادٍ ممرع وغير منيعة الحصون ، وكانت في ذلك الوقت من المدن التي يصح أن تسمى مدناً عالمية . ولم يحاول أحد أن يدافع عنها بل تركت تحت رحمة الغزاة . ولما دخلها إبراهيم لم يبق فيها إلا ريثما يملأ مخازن ميرته ؛ فلما فعل واصل الزحف إلى حمص ؛ ولولا

(١) كدلثين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ١٣٦ ؛ سماركو وثائق إيطالية

لم تنشر المجلد التاسع ص ٢٧١ وفيها تقرير رسمي يثبت لين إبراهيم في معاملة المهزومين

ذلك لأثرت فيهم بترفها وورثاتها وكانت لهم كما كانت كپوا Capua^(١) لجنود قرطاجة .

وكان والى طرابلس ينتظر قدومه ومعه ثلاثون ألفاً من الجنودهم مقدمة الجيوش العثمانية التي نزلت إلى ميدان القتال . ولو تأخر إبراهيم عن الزحف لوصل المدد إلى الجيش التركي فزاد عدده ، ولذلك تقدم نحوه لا يلوى على شيء ، وتمكن في اليوم الثامن من شهر يولية سنة ١٨٣٢ من الإحداق بالعدو ، لكنه لم يبدأ بالهجوم . فلما هجم عليه القائد العثماني بعساكره أصلاهم المصريون من بنادقهم المسددة ناراً حامية ، قطعت نظامهم وأدبارهم . ولم تدم المعركة إلا قليلاً ولكنها انتهت بنصر إبراهيم نصراً مبيناً^(٢) . وتدل محفوظات القنصلية الروسية بالقاهرة على أن إبراهيم أسر من الأعداء ٢٥٠٠ واستولى على عدد عظيم من المدافع وكثير من « الأمتعة »^(٣) . وكتب إبراهيم إلى أبيه في ١١ يولية سنة ١٨٣٢ تقريراً ينبئ به هذا النصر ويؤيد تلك الأرقام ، ولكنه يرفع عدد الأسرى إلى ثلاثة آلاف . وقد جاء في هذه الرسالة الرسمية « أن الجيش المهزوم كان يشتمل على ثمانية من الباشوات وأربعة آلايات من المشاة ، وثلاثة من الفرسان ، وخمسة عشر ألفاً من الجنود غير النظاميين ، وأن خسائره بلغت ألفي قتيل وألفي جريح بخلاف الأسرى » . وقد نقل الجرحى والأسرى إلى عكا^(٤) .

(١) مدينة حصينة قرب نابلي دعا أهلها هنيبال في أثناء غارته على إيطاليا ليقضى فيها الشتاء هو وجيشه في عام ٢١٦ ق . ب ، وفيها انغمس الجنود في الترف والملاذ فضمفت قوامها واستردتها منهم الرومان بعد ذلك . وقد دمر العرب المدينة القديمة في عام ٨٤٠ م وقامت المدينة الحديثة في مكانها . (العرب)

(٢) تاريخ الثورة المصرية تأليف ١.١ . باتن . لندن تريبنر وشركاؤه ١٨٦٣ ص ٩٦ .

(٣) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٢٢ .

(٤) مجموعة رسائل محمد على المطبعة الأهلية ١٩٣ الوثيقة رقم ٤٦١ .

ولم يقنع إبراهيم بهزيمة العدو بل وجه عنايته إلى تنظيم إدارة البلاد التي فتحها ، فاختار في ١٤ يولية عشرين من أعيان دمشق وألف منهم مجلساً لحكم الولاية . وصيغ بلاغه لهذا المجلس في العبارة الآتية :

« يجب على الراعى أن يعنى بأمر رعيته ؛ ولذلك رسمت الخطط لإصلاح حال السكان الذين أوتمنت على مصالحهم ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بنشر العدالة بينهم والعمل لخيرهم .

« وتنفيذاً لهذا العزم ألفت مجلساً من أعيان البلاد وتجارها ، وعهدت إليه النظر في شؤون الأهالى . وستكون جلساته علنية ، ويدخل في اختصاصه جميع المسائل المدنية العادية . أما المسائل القانونية فسيرجع فيها إلى رأى علماء القانون » (١) .

لكن إبراهيم رغم تفكيره فيما عليه من التبعية للغلوبين ، لم ينس قط أنه جندى في الميدان ، وأن واجبه الأول هو أن يسحق قوة أعدائه . فوجه همه كله إلى هذه الغاية وظفر بالنصر تلو النصر ، واستسلمت له المدن واحدة بعد الأخرى ، فسقطت حلب في ١٥ يوليه ، وفي التاسع والعشرين منه أباد جيشاً تركياً آخر عند ممر بيلان . ولما رأى القائد العثماني العام أنه لم يبق له في النصر رجاء ، ولى مدبراً نحو أطنه تاركاً بلاد الشام كلها لإبراهيم يتصرف فيها كيف شاء . وجاء في تقرير رسمي مرسل إلى وزير الخارجية في حكومة الصقليتين (٢) أن الرعب قد تمكن من قلب القائد التركي ، فترك الخيام والأمتعة والمدافع والذخائر وغيرها وراءه ، وفر مسرعاً نحو أنطاكية .

(١) المصدر عينه الوثيقة رقم ٤٦٤ .

(٢) سماركو في كتابه السالف الذكر ص ٩٧ .